مشاهد تاريخية

في البحر المتوسط

من القدم الازمنة الى العصور الحديثة

منذ نحو ثلاثين الى اربعين الف سنة كان البحر المتوسط بطائع شاسعة وحراجاً وبحيرات وبراري . وكانت حيوانات الفرس البري والدببة والجاموس تجوسها قطعاناً وارجالاً . وكان انسان الكهف في ذلك العصر — كرومانيون — طويل القامة كبير الدماغ يصيدها بحبه البارعة ويذبحها بأدوات مصنوعة من الصوّان ، فيصنع من جلودها أردية ، ويتخذ من لحمها غذاءه ، ويدوّن انتصاراته عليها في رسوم ينقشها على جدران كهوفه

ثم بعد عشرين الف سنة ، تركت قبائل الأزيل وصف حياتها ومعيشتها منقوشاً على جدران الكهف المعروف بكهف «ماس دازيل» . كان الجاموس والدببة قد ارتدّا الى الشمال . وعرفت قبائل الازيل عوضها الى قنص قطعان الفرس البري المتناقصة وارجل الأيائل ، بالقوس والنشاب . وكانوا يخيطون جلودها بإبر من العظم ، ويصيدون السمك في البحيرات والانهر بحسّارات من العظم ايضاً ، ويدخنون خلايا النحل لكي يثوروا عسلها . وكان انسان البحر المتوسط قد تعلم قبل هذا العهد الملاحة بجمل يقتو على بحيرات تملكه الواسعة ، في زوارق مصنوعة من القصب ومغطاة بالجلود ، وكان قد تعلم اختلاف الفصول بحيث يقنص ويصيد ويدّخر في الصيف ما يحتاج اليه

ثم من نحو خمسة عشر الف سنة الى نحو عشر الف سنة ، تشقّ الخلل العظيم عند أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) وفاصل بين منطقة البحر المتوسط وخليج الاسكندرية ، فتدفقت مياه المحيط شرقاً وغمرت البطائح التي كان السوس تجوسها ، والفرس التي كان الفرس البري يقنصها بشبها ، وملأت بحيراته في تدفقها وامتدادها ، حتى وقفت عند جبال الاطلس . فتراجعت واستاد الاب وابريقه وصنارج الايدين وسلسلة صورس العظيمة . فتشأت عن ذلك شواطئ البرتغال المتصرّسة ، وقدم ايطاليا ، وغمرت مياه بلاداً تكثر فيها الآكام في منطقة جزائره ، ويبقى

---

(١) استخلصنا هذا الفصل من الفصل الاول من كتاب The Dangerous Sea اي «البحر الخطر او البحر المتوسط ومستقبله» وهو للكاتب البياني الانكليزي جورج سلڤستر ونشرته دار هتشنسن

من الآكام الا قمها وهي جزائر الارخبيل وعجزت عن ان تغمر جبالاً اخرى ممتدة من الغرب الى الشرق فكانت كورسيكا وسردينيا وصقلية ومالطة وكريت وقبرص . وكذلك عينت هذه الاسوار المتدفقة سواحل القارات الثلاث اوربا وافريقية وآسيا المحيطة بهذا البحر

وقدر لشواطىء هذا البحر المتوسط بين ثلاث قارات ان تصبح منشأ ومقراً لطائفة من أشهر الحضارات في التاريخ المدوَّن ، زهت هنا وعظمت ثم دالت دولاتها ودرست معالمها ، ولم يبقَ منها الا بعض الآثار العجيبة . إن أقدمها متغلغل في جوف الزمان ، بدأت تسفر عنهُ الكتابات المسمارية في ألواح الطين في بلاد الرافدين وأحدثها كأنهُ من بنات الامس القابر على الرغم من الفي سنة تفصلنا عنهُ

الى شواطىء هذا البحر المتوسط ، توافدت جماعات من القراة فأنشأت دولة أو دولة في مصر ، وامبراطورية اثر امبراطورية في بابل ونينوى . فها حكم حمورابي في بابل كان الفينيقيون الساميون ، قد رسخوا اقدامهم في صور وصيدا وغيرها من الثغور التجارية العظيمة على سواحل هذا البحر الشرقية . كانت سفنهم بأشرعتها القرمزية ، قد عبرته طولاً وعرضاً . بل كان الفينيقيون قد انشأوا مستعمرات في اسبانيا وبلاد الغال وعلى شاطىء افريقيا الشمالي اسسوا المدينة التي اصبحت فيما بعد عاصمة الامبراطورية قرطاجنة . ثم اجتازوه بأشرعتهم العديدة هرقل وانحدروا شمالاً محاذين شواطىء اسبانيا وفرنسا الى سواحل بريطانيا . وقبل ان ينقض البحارة اليونانيون واخلفوا الفينيقيون اصول الحضارة الى سواحل هذا البحر الغربية ، كان الفينيقيون قد باعوا سكان تلك السواحل عطوراً وخموراً وأقاويه ، لقاء نحاس اسبانيا وقصدير كورنوال (مقاطعة بريطانيا الجنوبية)(١)

وليس في التاريخ ، ادلة اقوى على زوال الامبراطوريات ، وعدم استقرار الحضارة من الادلة التي يستخرجها الباحث في تاريخ البحر المتوسط . لقد شهدت مياه هذا البحر ، الحضارة الايجية العظيمة وقد بلغت ذروتها وأوج مجدها في ميسيني وطروادة وفي كنوسوس عاصمة الدولة المينوية في كريت حوالي ٢٥٠٠ ق.م . ثم جاء اليونان الآريون فدمروها . وشهدت تلك مفاخر حضارة مصرية ترتفع وتنخفض ثانية . هوذا طوائف القراة من قلب آسيا ، تؤسس في بلاد الرافدين حضارة عظيمة الشأن ثم لا تلبث ان تبلى بطائفة اخرى من القراة تغلبها على امرها ، فتدمر ما بنت ثم تقيم على انقاضها حضارة جديدة . فالامبراطورية الاشورية العظيمة امتد سلطانها وعظمت شوكتها حتى استطاعت ان تطرد من مصر غزاتها الاثيوبيين

(١) حدثنا بعض من أتيحت لنا مباحثهم في انكلترا من سنوات ، ان بعض النباتات الخاصة بمقاطعة كورنوال لا تزال تحمل في ثنايا اسمائها بعض الاصول والمقاطع الفينيقية

ولكن لم تلبث حتى سقطت أمام جموح مادي وقارس . هوذا فجر بركليس وعصره يتبلج على اثينا ولكن اسكندر ذي القرنين يشيد امبراطوريته على انقاض الجمهوريات اليونانية . لقد امتدت الامبراطوريات التي أسست على شواطىء هذا البحر ، الى المحيط الاطلنطي غرباً والمحيط الهندي شرقاً . ان مرائيه كثيراً ما ازدحمت بالقائم والاسلاب من افريقية وآسيا . ومن موانيه المحتشدة ، أقلعت السفن الاولى التي دارت حول رأس الرجاء الصالح ، وشقت الطريق الى العالم الجديد . ان تأثير احدث حضاراته القديمة — اي الحضارة اليونانية والرومانية — لا يزال ماثلاً في علمنا وفننا وقانوننا الى يومنا هذا

ولا ننسى ان شواطىء هذا البحر شهدت قيام اعظم ديانتين في تاريخ العالم : ديانة السيد المسيح ، وديانة النبي العربي الكريم ، بل كثيراً ما كانت سواحله ميداناً للنزاع بينهما ، وكأن الزمان نفسه وقف عن المسير ، منتظراً ما يسفر عنه هذا النزاع

***

ان اعظم المعارك البحرية في التاريخ ثبت — حتى اوائل القرن العشرين — في مياه البحر المتوسط او في جوارها . ففي سنة ٤٨٠ ق . م . هزم اسطول زركسيس في خليج سلاميس على أيدي اليونان . وفي السنة التالية أجهز هؤلاء على البقية الباقية منه في ميكالي ولم تنقض اربع سنوات حتى اغلب اسطول الاتركيين على اليونان في صقلية . بل ان النزاع الطويل بين دويلات اليونان وهو المعروف باسم حرب البلوبونيس (٤٣١ — ٤٠٤ ق . م) كان في الغالب نزاعاً عرضياً النزاع السيادة البحرية من الاسطول الاثيني . وما اطل نجم الاسكندر ذي القرنين وبدأ سيره الظافر شرقاً حتى وجد في مواني الساحل صور وصيدا ، خدماً قويا ، عشر زحفه على جيوش داريوس الثالث . وما بدأ النزاع بين قرطاجنة وروما ، وقد كانا دولتين بحريتين ، احتشد التاريخ البحري للبحر المتوسط بالحوادث الجسام والمعارك الكبيرة . ففي سنة ٢٦٠ ق . م . ثبت اعظم معركة بحرية في العالم القديم هي معركة اكتيوم . وفي المياه نفسها عند خليج ايجينا ثبت اعظم معركة بحرية في عصور المتوسطة (معركة ليبانتو سنة ١٥٧١) وقد ظلت هذه المعركة البحرية اعظم المعارك البحرية في الثانية عشر قرناً من تاريخ المسيحي حتى كانت معركة الطرف الاغر في مستهل القرن التاسع عشر

لقد بدأ حكم نابوليون بانشاء امبراطورية شرقية عظيمة كحماية صيقلية لامبراطوريته في الغرب . ولكن سيادة البحرية في البحر المتوسط كان معارك الامبراطورية ، حتى ان معركة ابوقير كانت فيه مياه هذا البحر ، مسرحاً للقرصان ولم تزل البحر المتوسط معركة بحرية بعد ان ثبت معركة نافارين التي غلبت فيها اساطيل تركيا ومصر ، سنة ١٨٢٧ ، الى ان كانت سنة ١٩١٤

اذ أفقت النصرانية الاثنين عشر وثنيين وثنيين من أساطين الخلاء وحاولت ان تحدّي سائرها عليه

ليس في العالم رقعة من الماء تشبه البحر المتوسط او تقاربهُ في عدد الشعوب المتصلة بتاريخه. ان فجره يبلج اليوم كما كان يبلج في العصور الغوابر على العربي واليهودي والمصري، الايطالي والصقلي، الاسباني والتركي والفرنسي. ان الرجال والنساء الذين يعيشون على سواحله يكادون يؤلفون طرازاً خاصاً من الناس، لاشتراكهم في بيئة واحدة وغذاء متماثل وأعمال ومصالح متشابهة، ولاختلاط دمائهم بعضهم ببعض خلال عصور طويلة

***

جذب البحر المتوسط الغزاة اليه من فجر التاريخ، القوط والفاندال من الشمال، والفنيقيون من الشرق، والقاتيين والفرنك والنورمن من الغرب والشمال الاقصى. ولولا فترة قصيرة استولى فيها الاثينيون على وادي النيل، لقلنا ان الزنوج وحدهم دون سائر الشعوب امتنعوا عن الانقياد لسحره. منذ فجر التاريخ شقت سبله مختلف شعوب استقرت في تركيا وضيعة بثها بواعث الهجرة وحب المغامرة كالفينيقيين واليونان والقرطاجنيين. وقد كان الاتجاه في التجارة والهجرة حتى القرن الماضي، الى الغرب، ولذلك كان مضيق جبل طارق، وهو باب البحار القديم الى المحيط الاطلنطي، هدفاً للمغامرين في ايام اليونان والرومان فجدن عاد وايبيريا (اسبانيا) وسواحل افريقية من ترصجانة الى المحيط. اغرت الشعوب المزدحمة في شرق البحر، بخصبها وغناها وسعتها

ثم ان مسالك التجارة والادارة والمواصلات الامبراطورية اتجهت في العصور الوسطى والحديثة شرقاً وغرباً دون شك في خلال قرون المظلمة التي تلت سقوط روما وزحزحة اتجه مركز السيادة في البحر المتوسط الى سواحله الشرقية. فبعد ان تحمت الامبراطورية النهائية الفسطنطينية الاستانة اصبحت عاصمة فيها جعلتها مركزاً، سيرت منه حجوم فاكتسحت مصر وفارس والجزيرة وشمال افريقية الى المحيط الاطلنطي. فأصبحت تونس، وهي ترصجانة القديمة، والجزائر وطنجة وفاس أمماً مسلمين. واتسع البحر الجزائري وحاول الصليبيون بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر ان يردوا موجة الفتح الاسلامي المتجهة من الشرق الى الغرب وتكتسحها. ولم يحتفظ بالسيطرة المسيحية الا في المنعزلة في البر، بين شمال البحر كذلك فرنسا وما يوجد الآن في يوغسلافيا، جنوب ... وأخذوا شكله ثم رودس. ولم تبق قبرص في يدي الصليبيين، الا ... البندقية نحو ... مكثير مما يطلبون

وكذلك كانت الدولة العثمانية في ايام سليمان القانوني، قوة بحرية لا تبارى من سواحل

سوريا الى شواطىء اسبانيا . وحاول الامبراطور شارل الخامس ان يخرج الفرسان من تونس والجزائر . فرتد خائباً من الجزائر بعد ان اقام في تونس حامية استطاعت التخصن في ملك ابنه فيليب . اما جزيرة مالطة التي تراجع اليها فرسان مار يوحنا الاورشليمي ، فحوصرت حصاراً طويلاً . وكذلك ظلت سيادة العثمانيين البحرية على البحر المتوسط ، الى أواسط القرن السادس عشر ، عند ما نشبت معركة ليبانتو ، فنازت فيها أساطيل أسبانيا

***

ولو شاءت أسبانيا حينئذ او لو عرفت ان تغتنم الفرصة ، لكانت السيادة في البحر المتوسط لها . ولكن امراء البحر الاسبانيين كانوا شديدي الانشغال ، بعد معركة ليبانتو ، بحماية السفن المحملة بكنوز جزائر الهند ، والسفن الناقلة للجنود الى هولندا الاسبانية ، والسفن التجارية الآتية من هولندا الى أسبانيا . وشغلهم علاوة على ذلك عزمهم على مناوأة تجارة الملكة اليزابث بعد ان وجدوا البحر مسرحاً لما في نفوسهم من حب المغامرة والتوسع . كذلك حال الاستعداد للحملة العظيمة التي رغب فيليب الثاني ملك أسبانيا في تجريدها على انكلترا ، دون التفاته الى البحر المتوسط . فاستغرقت كل تفكيره ، واستنفدت معظم ماله ، فكان البحر الذي يصل شواطىء أسبانيا وايطاليا ، وبؤمن مواصلاته الى جنوى ونابولي وصقلية ، كان خارجاً عن نطاق تصوره الحربي ، او نطاق مطامعه الواسعة . لم يكفه ما ورثه عن والده من سيطرة والقاب وضحى بثمار الانتصارات التي أحرزها أخوه « الدون جون » في البحر المتوسط ، لانه كان يطمح الى السيطرة سيطرة روحية وعسكرية على شمال اوربا

ولكن هزيمة أسطوله في تلك المعركة البحرية العظيمة عند شواطىء هولندا ، في سنة ١٥٨٨ عندما اشتبك أسطوله بأسطول الملكة اليزابث الانكليزية في معركة الارمادا الاسبانية المشهورة ، بدد هذه الاحلام جميعاً . ثم تلا ذلك تدمير البقية الباقية من أسطوله على شواطىء انكلترا وايرلندا الجنوبية . فأصبحت اعظم دولة بحرية في البحر المتوسط في ذلك العهد ، وهي لا تستطيع ان تشق عباب بعضها خشية الفرسان ، مع ان ذلك البحر كان في قبضتها لم تدت

ثم جاء زمان على هذا البحر ، والسيادة فيه ليست لدولة من الدول . ذلك أن قوة الدولة العثمانية كانت قد ضعفت ومعها قوة البندقية ، وأصبح البحر مسرحاً للقرصان وظل كذلك الى خاتمة القرن الثامن عشر . عندما ظهر أثر القوة البحرية الانكليزية في تأمين مواصلاته . ولكن الأسطول الانكليزي لم تتم له السيادة على هذا البحر ، الا بعدما غلب نابليون على أمره ثم تطورت أحواله قبيل الحرب الحالية وفي اثنائها وما تلاها من الاحداث الى ان نشبت هذه الحرب وهو موضوع يقتضي بحثاً خاصاً